المحاضرة الخامسة: مشكلات أخلاقية

أولا: مشكلة الشر

لاشك أنه منذ ظهور الإنسان على وجه الأرض وهو ينظر إلى الأشياء من حوله نظرة تقويمية أخلاقية، ويصف بعضها بأنه خير، ويصف الآخر بأنه شر، وبالطبع فقد كان معياره في البداية هو ما يعود عليه من وجود هذه الأشياء من منافع أو ما يلاقيه من أذى أو ضرر، لكن بالتأكيد في مرحلة لاحقة، وخاصة بعد أن عرف وأدرك وجود الإله الصانع أو الخالق لهذا العالم بكل ما فيه من كائنات وأشياء وظواهر تساءل: من أين أتى الشر في ظل وجود هذا النظام المفترض في كل ما في الوجود بوصفه فعلا إلهيا ؟

أولا: أصل الخير والشر في الفكر الشرقي القديم

منذ فجر التاريخ في مصر القديمة يتحدث المصريون عن الأسطورة الشهيرة(أسطورة دمار البشر) تلك الأسطورة التي تعبر عن الخطيئة التي ارتكبها البشر ضد الإله (رع)، وقد حدث ذلك في زمن كان البشر والآلهة شيئا واحدا يتعايشون معا على الأرض. وعندما بلغ الإله رع من السن عتيا بدأ البشر في تجديفهم وتآمرهم ضده لكنه أدرك أفكارهم ودعا الآلهة ليسألها المشورة فيما ينبغي عليه فعله مع هؤلاء الخطاة. وهكذا فإن الإله (رع) رمز الخير والإله الاعظم يواجه خطيئة الإنسان وشروره وتآمره بهذه الروح الخيرة، فبعد أن قرر أن يعاقب الإنسان على فعله الأثيم، عاد وعفا عنه وأرسل من ينجيه من هذا العقاب. ولننظر إلى رمزية النور والظلام، حيث إن الإله رع هو نور الأرض وشمسها الساطعة، وحينما غاب عنها حل الظلام، ولم يرض (رع) أيضا بإظلام الأرض فترك فيها (تحوت) القمر لينيرها في غيابه عنها. وهكذا دائما فالخير والضياء من الآلهة والشر والظلام من أفعال البشر ونتيجة خطاياهم وآثامهم.

وقد تجلت هذه الرؤية للصراع الأبدي بين الخير والشر لدى الإيرانيين القدماء في الديانة الزرادشتية بالاعتقاد بالثنائية الكونية والأخلاقية، ثنائية الخير والشر، فهي تؤمن بثنائية كونية تفترض وجود

مبدأين كأصل للكون: روح الخير (أهورا مازدا) وروح الشر (أهريمان). وقد تطورت هذه العقيدة في الثنائية الكونية والثنائية التأليهية، فأصبح ينظر إلى أهورا مازدا على أنه الإله الخير واكتسب أهريمان رمز الشر فأصبح ينظر إليه على أنه شيطان. وأصبح لكل منهما قوى تساعده فأهورا مازدا إله الخير تساعده قوى من الملائكة الخيرة، أما أهريمان فتساعده قوى الشر.

وفي ذات السياق نجد أن الفكر الديني الهندي يؤكد على أن الشر والخطيئة من الإنسان، وأنه أي الإنسان كثيرا ما يناشد الآلهة أن تساعده على التخلص من هذه الخطيئة وتطهره متى أوقعته فيه قوى الشر المختلفة.

ثانيا: أصل الخير والشر في الفكر اليوناني القديم

تروي بعض الأساطير اليونانية أنه كان يدق على باب زيوس كبير الآلهة جرتين إحداهما تحتوي على الخير والأخرى تحتوي على الشر، ويقوم زيوس بتوزيع محتوياتهما على البشر بمشيئته، فيعطي البعض خليطا من الجرتين، وآخرون لا يعطيهم إلا الشر.

وكانت مشكلة الشر عند الفيثاغورية تعالج كمشكلة دينية حلها عند المؤمن القادر على التخلص من شرور نفسه بالتطهير ومحاولة التقرب إلى الآلهة الخيرة القادرة على انتشاله من هذه الشرور.

ويؤكد سقراط على أن أي معرفة لحقيقة الخير والشر ينبغي أن يقوم على استطاعة المرء التمييز بين الحق والباطل، وبهذا المعنى تكون الفضيلة علم والرذيلة جهل.

أما أفلاطون فقد أكد على أن الإله هو الخير أو بالأحرى هو مثال المثل (مثال الخير) وأن الشر هو من نفس الإنسان التي نزلت إليه صافية طاهرة، ولكنه سجنها في الجسد ومحاولتها تلبية مطالبه هو ما يوقعها في الشر. وقد اعتقد أفلاطون أن الآلهة لا يمكن إلا أن تكون خيرة وعادلة، ولذلك فهي ستعاقب الأشرار بشرورهم، وستتلقى الخيرين في الحياة الأخرى بالترحاب وتكسبهم الخلود والأبدية.

ثالثا: مشكلة الشر في الأديان السماوية

إن مشكلة الشر في الأديان السماوية ترتبط بما يسمى بالخطيئة الأولى للإنسان في اليهودية والمسيحية، حيث ورث البشر فيهما خطيئة آدم، ومن ثم على الإنسان دائما محاولة الخلاص من هذه الخطيئة الموروثة، وقد تشابهت هاتان الديانتان السماويتان في تناول قضية الخلاص رغم اختلاف علة الخطيئة، ففي اليهودية والمسيحية نشأت مشكلة الخطيئة وكيفية التخلص منها، حيث تطورت عقيدة الخلاص والمسيح المخلص الذي وظيفته تحقيق الخلاص للإنسان من الخطيئة. ومن ثم فقد حددت كل واحدة من هاتين الديانتين طريقها للخلاص. وعلى ذلك فهي ديانات خلاصية.

أما الإسلام فبيس دينا خلاصيا لأنه لا توجد مشكلة للإنسان فيه. إن الإنسان فيه لم يولد محملا بذنب، بل هو عبد من عباد الله الذين عليهم الطاعة والالتزام بالشعائر الدينية، وكلما تقرب إلى الله بهذا نال الثواب، وكلما خالف ذلك لاقى العقاب.

ومشكلة الخير والشر في الإسلام قد لاقت بلا شك جدلا واسعا بين الفقهاء والمتكلمين والفلاسفة فيما عرف بقضية (الجبر والاختيار) وما ارتبط بها من حديث حول قضية القدر خيره وشره، وقضية حرية الإرادة وخلق الأفعال وقضية علاقة الله بالبشر فيما يتعلق بالتكليف والثواب والعقاب الأخرويين.

رابعا: مشكلة الشر في الفلسفة الحديثة

1 ـ كانط: إن قضية الشر عند كانط يمكن تلخيها من خلال أربعة عناصر أساسية: **أولا:** أن مبدأ الشر ساكن بجوار مبدأ الخير، ومن ثم يتحدث في هذا الأمر حول الشر الجذري في الطبيعة البشرية. **ثانيا:** أن ثمة صراعا بين مبدأ الخير ومبدأ الشر من اجل السيادة على الإنسان. **ثالثا:** انتصار مبدأ الخير على مبدأ الشر وتأسيس ملكوت الله. **رابعا:** العبادة والعبادة الباطلة تحت سيادة مبدأ الخير.

ويمكن أن نؤكد أن رؤية كانط للشر الأخلاقي والذي ينبغي للإنسان أن يحوله إلى خير بما أن لديه الطبيعة الأصيلة للخير. إن ثمة علاقة جدلية في الطبيعة الإنسانية بين الخير والشر، فهما معا من طبيعة الإنسان. ومن ثم فلدى الإنسان بموجب القانون الخلقي إمكانية الارتقاء بسلوكه نحو الأفضل دائما، لديه إمكانية النجاة من السقوط في الشر بإيقاظ ما بذاته من طبيعة خيرة. إن القداسة الحقيقية عند كانط هي فكرة الواجب الأخلاقي، لأنها هي التي تمنحه من القوة ما به يحتمل التضحيات التي يمكن أن يفرضها عليه اختزام واجبه.

2 ـ هيغل: موقف هيغل من ثنائية الخير والشر، فالخير هو الحق والقوة، وهو ينتصب في حربه ضد المبدأ الثاني الشر، ومن الحق أن ينتصر الخير على الشر، إذ يجب قهر الشر وإزالته. ويصف هيغل الخير بالمتناهي بينما الشر باللامتناهي، ويقر بأن كليهما موجود، وهذا يعني أن الشر مسموح بوجوده مع أن الله عند هيغل ليس إلا مبدأ واحد قوة واحدة المتناهي ، ولهذا السبب فإن الشر ليس له وجود مستقل . إذن وجود الشر ليس وجودا جوهريا، بل إن الوجود الجوهري المتناهي المحدد هو فقد وجود الإله الخير المطلق، ويبدو أن الشر ليس موجودا مستقلا خارج هذا الوجود الكلي للخير، بل هو كامن فيه ويمثل وجها آخر له.

ويشبه هيغل علاقة الخير والشر بعلاقة النور بالظلام، فالنور له ظلام ينتصب ضده، ففي الطبيعة نجد هاتين الخاصيتين منفصلتين الواحدة عن الأخرى، أي أن النور وسلبه جنبا إلى جنب رغم أن النور في الحقيقة هو القوة التي تمحو الظلام.

إذن فالخير والشر (النور والظلام) داخل الكل الواحد الذي هو الإله، وثمة صراع بينهما، وإن كانت قوة الخير مؤهلة دائما للتغلب على الشر، إلا أن هذا ليس ضروريا، فللشر فعله إذن في الوجود، ووجوده آلي وإن كان يقاس دائما بوجود الوجود الأصلي المطلق الذي هو الخير.

ثانيا: الإنسان والخطيئة

خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم، وميزه بالعقل على سائر المخلوقات الأخرى، وجعل هذا العقل مناط التكليف، وأنزل إليه الشرائع التعبدية وأمره بالطاعة ونهاه عن المعصية، بعد أن بين له طريق الهدى والرشاد وحذره من الضلال واقتراف الخطايا، وخيره بين نور البيان وظلام الكفر، ومع ذلك لم ينف الدين عن الإنسان صفة الآدمية، ولم يقل أنه ملك كريم، يتحلى بمطلق الطاعة، لا يعصي ولا يفعل ما يؤمر به، بل إن جميع الأديان أكدت على أن الإنسان بشر يخطئ ويصيب ويؤمن ويكفر، كما أشار إلى أن للإنسان عمل يزيد وينقص، لذا خصص الله سبحانه وتعالى أحكاما وقواعد تحد من وقوع الإنسان في الخطايا والذنوب، كما شرع من الدين ما من شأنه أن يكون الإنسان قادرا الى الرجوع إلى دائرة الإيمان من جديد، بعد وقوعه في الخطايا والذنوب، وقد تعرض مفهوم الخطيئة إلى الكثير من التحريف والتأويل عند البعض وفى بعض الأديان، ولم يسلم مفهوم الكفارة أيضا من هذا التحريف والتأويل.

وبما أن تصور الخطيئة واحد في الإسلام والمسيحية، فإن تصور الحاجة إلى الخلاص والهدى واحد أيضا بينهما، ولكن التشابه في تعيين مضمون الخطيئة وفي عناصرها الرئيسية، لا يؤكد التطابق في تدبر أصل هذا الارتكاب للخطايا وفي ترسم آثاره.

ـ الخطيئة في المسيحية والإسلام:

المسيحية تعتقد أن حرية الإنسان الأصلية هي التي تتيح له أن ينقاد للعصيان والتعالي على مشيئة الله. أما الإسلام فيعتقد أن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، مما يعني أن موضع الثقل في عصيان الإنسان، لا تستغرقه مبررات الحرية البشرية وحسب، بل الله أيضا مشارك في إثبات هذا الضلال، وفيما المسيحية تصر على اعتبار مبدأ الخطيئة الأصلية إقرارا بواقع الضعف في بنية الطبيعة البشرية، وباستمرار توارث هذا الضعف من جيل إلى جيل، لا يعترف الإسلام بمبدأ الخطيئة الأصلية المتوارثة، بل يسند إلى الإنسان الفرد مسؤولية الاهتداء أو الضلال، وذلك من غير أن يغفل مراعاة ما قسمه الله لبني البشر منذ بداية الخليقة. ويتضح من ذلك كله أن المسيحية

في موضوع الخطيئة، تدافع عن حرية الإنسان في اختيار الضلال، فيما يبدو الإسلام وكأنه يخالف مبدأ الحرية هذه بإشراك المشيئة الإلهية في تحديد خيار الضلال أو الهدى.

ويتبين كذلك أن المسيحية عينها في موقع تعيين آثار الخطيئة، تعرض عن اعتبار فردية الإنسان وقدرته على الانعتاق من أرث الخطيئة، هذا فيما الإسلام يعزز الخيار الفردي إذ يتناول إحكام الله فيه من خلال مسيرته الشخصية، فيحد الخطأ في حدود الفرد والزمان والمكان، ويبطل إمكان الضلال المتوارث، وهكذا يتجلى التطابق والتعارض بين تصور عقيدة القدر أو القسمة في الإسلام وتصور عقيدة الخطيئة الأصلية في المسيحية.

ومن تباينات عقيدتي الخلاص والهدى وتصور وسيلة الخلاص، والخلاص ارتداد في المسيحية عن الخطأ وتوبة في الإسلام. فالمسيحية تؤمن أن التضحية التي ارتضاها السيد المسيح موتا على الصليب، قد افتدت بني البشر افتداء الحب الإلهي لحمايته من العذاب، لينقذ الإنسان بقوة الإيمان القصوى. ومن هذا الفداء تنبثق في عرف المسيحية نعمة الخلاص التي بها ينتقل الإنسان المؤمن من حال الخطيئة الى حال الإنسانية والنعمة والألوهية المكتسبة، وهو انتقال من حال السقوط الى حال الإنسانية المبررة.

أما الإسلام فيؤمن بالتوبة تجاوزا للخطأ بقدرة يضعها الله في الإنسان لعمل الخير، وهي قدرة لم تشوهها الخطيئة الأصلية كما هي الحال في المعتقد المسيحي، فالتوبة في الإسلام هي انتقال من حال إنسانية ضالة خاطئة إلى حال إنسانية أخرى مهتدية بارة، فيما التوبة المسيحية هي تبدل كياني يتجاوز حال الإنسانية الخاطئة، ليفضي إلى حالة التأله المكتسب مرورا بحال الإنسانية المكتملة.

هنالك تباين بين الأنثروبولوجيا الإسلامية والمسيحية في النظرة للإنسان، فالمسيحية تؤكد على تتويج الخلق والخلاص بنعمة التأله. لكن الإسلام أكد على كرامة الإنسان بطلب الله عز وجل إلى الملائكة أنفسهم بالسجود له، وأن الله استخلفه في إدارة شؤون الأرض، لكن الله عز وجل لا يبيح على الإطلاق تأليه للإنسان.

ثالثا: الإنسان والموت

عديدة هي المواقف التي يشهدها الأطباء، وهم يرون انسحاب الإنسان بصمت أمام وقع الموت، بعد استنفاذ كلّ جهود التدخّل والإنعاش، ليقرّ الأطباء في النهاية بعجزهم واعترافهم بحقيقة لا مفرّ منها. وكثيرة هي شهادات الوفاة التي يصدرها الطبيب عند معاينة وفاة أحدهم، وهي تتضمن تلك العبارات بأنّ الوفاة حقيقية ودائمة وغير مشكوك فيها، لا تستدعي التشريح أو عكس ذلك. ومن منّا من لم يشهد موتا أو لم يذق حرقة فقدان أحد أفراد عائلته أو أقاربه أو أحد أصدقاءه ؟ هي ظاهرة لم تستثن أحدا، تحدث فينا صدمة آنية، لنتجاهلها بالانخراط مجدّدا في صخب حياة ابتلعتنا. فما الموت؟ وما الحياة؟ وهل يمكننا معرفة حقيقة أحدهما بمعزل عن الآخر؟

أولا: تعريف الموت

يعرّف الموت علميّا بأنّه: (توقّف الكائنات الحيّة نهائيا عن القيام بأيّ نشاط وظيفي حيوي كالتنفّس والأكل والشرب والحركة والتفكير). ويمكن تمييز تعريفين طبّيين له: **الموت السّريري** وهو حالة الانعدام الفجائي لدوران الدّم في الأوعية الدّموية مع الانقطاع التّام عن التنفّس، إلى جانب غياب الوعي. **والموت الدّماغي أو البيولوجي** وهو حالة انعدام وظائف الجهاز العصبي (الدّماغ وجذعه والنّخاع الشّوكي) بشكل كامل ونهائي.

يتطلّب الموت معاينة وتشخيصا ومن علاماته: شخوص البصر، شحوب البشرة، غياب للنّبض والتنفّس والحركة، اتّساع لحدقتي العينين، ارتخاء للجسم في مرحلة أولى، مع برودة تدريجية تكتسحه، وتصلّب الجثّة ثمّ تحلّلها في مرحلة متأخّرة، وهو ما يسمح بتحديد زمن الوفاة، ومن خلال المعاينة التعرّف على أسبابها وطلب التشريح إن كانت تحوم حولها شكوك.

أمّا **التّعريف الدّيني** للموت فهو خروج الرّوح من جسم الإنسان، للانتقال إلى مرحلة الحياة الأبدية. وأغلب الأديان تشترك في ذلك، معتبرة الموت بابا للولوج في حياة أخرى بعد مرحلة مؤقّتة من الحياة الدّنيا هي مجرّد ابتلاء وامتحان. وكان الموت موضوعا شغل الإنسان منذ وجوده ليحتلّ حيّزا مهمّا في مختلف الثّقافات والحضارات.

ثانيا: حتميّة الموت

كثيرة هي الوجوه الّتي كانت بيننا ورحلت دون رجعة، وكثيرة هي الأسماء الّتي نقرأها في صفحات النّعي والتّأبين، وعديدة هي الجنائز الّتي مشينا فيها أو وقفنا إجلالا لمرورها، وكم هي منتشرة أخبار ومشاهد الموت الّتي نسمعها ونشاهدها كلّ يوم، بيد أنّ إحساسنا بأنّنا معنيّون به أو قد يمسّنا، لا يماثل طرديّا حجم شيوع الظّاهرة، فغالبا لا نستشعر حقيقة وقعه إلاّ حين نصدم في قريب أو حبيب كان يحتلّ مساحة هامّة في حياتنا، كما أنّنا قد لا نشعر بأنّه قريب منّا، إلّا حين التعرّض لأزمات صحّية حادّة أو لحادث خطير، مع أنّنا نتعايش مع الموت في كلّ لحظة نعيش فيها. هي حقيقة واقعة لا محالة تصدمنا في نهاية طريق، قد يطول أو يقصر بسبب أودون سبب، وهي نهاية حتميّة لأيّ كان مهما طال به العمر أو اتّخذ له من التّحصينات أو اعتقد واهما أنّ الدّنيا منحته صكّ أمان. مات خير من كان ومن هو لقصّة الوجود عنوان، فكيف لا لبقيّة الأنام. يقول الله سبحانه وتعالى: (**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ**) (سورة الزمر، الآية 30).

ثالثا: حقيقة الموت

قد يبدو الموت وكأنّه زائر غريب، يطرق أبوابنا فجأة، ليختطف أحدنا مع أنّه ليس بالوافد، وليس بالغريب، فهو يعرفنا بقدر جهلنا به أو تجاهلنا له. فنحن نعيش ظاهرة الموت في كلّ لحظة وحين، فكلّ خلايانا تحمل كتاب موتها المبرمج، فتموت الملايين منها لتبرز ملايين أخرى في توازن بديع بين نظامي الموت والحياة، وعمليّات الهدم والبناء، وقد يختلّ التّوازن وينهار أحد النّظامين لينتصر الآخر. يقول الله سبحانه وتعالى: (**يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ**) (سورة الروم، الآية 19).

أمّا أجسادنا فهي منتظمة بذاتها، في تنفّسها وخفقان القلب، وكلّ العمليات الأيضية والحيويّة، وقد يختلّ نظامها بتدخّلنا الفجّ، وفي حالات أخرى قد تتعطّل الوظيفة بلا سابق إنذار، تلك الأجساد الّتي تستنزف وتجهد في النّهار، فتحتاج إلى قسط من الرّاحة في اللّيل، ليخمد الشّعور والإدراك، ويهيمن اللاّشعور، فتتحرّر الأرواح وتعرج متحدّية المكان والزّمان. هي موتتنا الصّغرى اليومية المتواترة مع حياتنا الصّغرى في عمليّة تدرّب واستحضار لتلك الكبرى، وكأنّها تنذرنا بأنّ حياتنا

الدّنيا الفانية ليست سوى جسر عبور نحو أخرى خالدة. يقول الله سبحانه وتعالى: (**اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**) (سورة الزمر، الآية 42).

رابعا: ثقافة الحياة وثقافة الموت

يتلاعب بعض الدّهريين ومروّجي العدميّة والعبثيّة بالمفاهيم، ليضفوا كلّ المعاني الجميلة الجذّابة على الحياة، مزيّفين إيّاها ومتلاعبين بوعي الأفراد بحتميّة النّهاية، عازفين على وتر غريزة حبّ البقاء، ومعتبرين أنفسهم بذلك مستنيرين وحاملي لواء ثقافة الحياة في مواجهة لثقافة الموت والفناء. هو خرق متعمّد لسنن الثّنائيات، تضخيم للحياة كبالون ينفخ فيه ليتمطّط وينفجر في النّهاية.

فالحياة مهما ازداد بريقها وعظم جمالها، فلن يتحقّق مقصدها إلاّ بالتنبّه لحقيقة زوالها، وتغييب ذلك يسقطنا في سوء مآلها. وكأنّ الحياة حلم لا تتجاوز مدّتها تلك الثّواني الّتي نستغرقها في الحلم، والموت يوقظنا من ذاك الحلم، لنكتشف بأنّنا لم نبلغ نهاية القصّة، بل هي مجرّد البداية. إنّ التركيز الممنهج على الحياة وتجاهل الموت، حوّلها إلى وهم وسراب، فلا يوجد وهم نتعامل معه كأنّه حقيقة كما الحياة، ولا حقيقة نتجاهلها ونتعاطى معها كأنّها وهم كما الموت.

أن نحبّ الحياة فذاك مفروض ومطلوب، لكن دون تناسي الموت الذي قد يأتي دون ميعاد بمبدأ: (اعمل لدنياك كأنّك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنّك تموت غدا). واجب علينا أن نعرف كيف نحيا، ومن الواجب أيضا أن نعرف كيف نموت، فاستذكارنا واستحضارنا لحقيقة الموت، يجعلنا ضرورة نستوعب حقيقة الحياة، لتفادي الزلّات والمطبّات، ولنكن على استعداد لرحيل أكيد هو آت زادنا فيه ما جمعناه من حسنات.